

المتخيل المحض: تأمل بالفكر/ تأمل بالشعر

The pure imaginary: a contemplation of thought /contemplation of poetry

حسناء بروش*

جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي الجزائر.

hasnabr21@yahoo.com

تاريخ النشر: 2022-12-30

تاريخ القبول: 2022-11-11

تاريخ الإرسال: 2022-01-30

الملخص:

تشغل موضوعة المتخيل حيزا معرفيا كبيرا، خاصة بالنسبة للإنسان البدائي، الذي يقتات على الصور الذهنية المجردة والمتخيلة ليشكل منها عوالمه العقلية والواقعية في آن واحد. على اعتبار أن الخيال هو الذي يؤسس الواقع في منظوره. كما أن الواقع هو ذلك المتحقق عن طريق الخيال، بكامل إسقاطاته وتمثلائه ووسائله المعنوية وغير المعنوية. إضافة إلى ذلك فإن الإنسان البدائي لم يصل بعد إلى مرحلة المرأة أو الوعي بالذات، لكي يتميز واقعيًا عن الوسط الذي يعيش فيه، سواء أكان هذا الوسط وسطا طبيعيا أو اجتماعيا أو أسطوريا. من هنا كانت الأسطورة هي الأقرب إلى نفسه لتفسير الوجود وفهمه والتعبير عنه، والأدنى إلى شعوره وخیاله ومشاعره، ومن هنا أيضا كان الخيال البدائي بالغ الفعالية والمنفعة والتأثير، فأصبحت بذلك كل الموجودات اللامرئية أو اللامحسوسة التي يؤمن بوجودها، موجودات واقعية بالفعل، تفرض وجودها الواقعي/ المتخيل بالقوة.

الكلمات المفتاحية: الخيال؛ الرجل البدائي؛ الصور الذهنية؛ الأسطورة؛ الواقع.

Abstract :

The topic of subjectivity in one's imagination occupies a considerable slot of knowledge, especially for primitive humans, who lived and subsisted on the abstract and imagined mental images to form their imagined and realistic worlds simultaneously. On the same line of thought, the imagination is considered as the responsible for the establishment of reality in its perspective, just as reality is achieved through

imagination, with all its projections, representations, and tangible and intangible aspects. In addition to that, primitive humans have not yet reached the stage of self-awareness in order to distinguish between what is real and imagined from the environment in which they live whether it is a natural, social or mythical environment. On this basis, the imagination was the closest to explain, understand and express existence at that time. Furthermore, the primitive imagination has played a highly effective, useful and influential role; thus, becoming all the tangible or intangible things that s/he believes in their existence, truly real things that impose their real existence /or Imagined by force.

Keywords: imagination; primitive humans; mental images; myth; reality.

*المؤلف المراسل.

يحتكم المتخيل إلى طبيعة حلمية تحويلية، يسعى من خلالها إلى تثبيت أفعال الخيال ودمجها دمجاً واقعياً تمثلياً مركباً، قوامه التطويع والخرق واللامعقولية.

وهو في كل هذا، يقيم تأملاته المتعالية، بناءً على ثنائيات مختلفة، ينتجها الخيال ويغذيها الفكر أو الشعور كالاستحضار والاستذكار، والتفاعل والتبادل...

وسنحاول من خلال هذا المهاد النظري التأملي، البحث في متخيلات الفكر الأسطوري، والكشف عن الأطر البنائية والقصورية التي ساهمت في توسيع وتشكيل أفق هذه المتخيلات، وهل ثمة مسوغات أسطورية لفكرة أن روح الإنسان في خياله؟ وهل ثمة إشراقات خفية تمكننا من تجاوز مرايا خيال الإنسان البدائي وتفويض مقولته الشهيرة: "اَحْذَرْ مِنْ أَنْ يَأْخُذُوا خَيَالَكَ (أي حياتك)؟".

كما سنحاول أيضاً إمطة اللثام عن مفاهيم الخيال والمتخيل والتخييل، وتبيان العلاقة بين الخيال والمتخيل (الحامل والمحمول) على اعتبار أن المتخيل معطى مادي يدل على الخيال ويقوم شاهداً عليه. وذلك من خلال توصيف وتحليل المقولات النظرية التي تتبع مسارك مصطلح على حدة.

ينفتح الخيال بوصفه عالما ذهنيا مجردا، على مدارات صورية شتى، تستمد وجودها الفعلي المحض من عالم واقعي محدد، وما من شك في أن هذا المعطى الواقعي الذي تتجرد به أفعال الخيال، إنما هو مجموع وحدات أو معطيات حسية مدركة تخضع بشكل أو بآخر لمبدأي: التفاعل والتبادل.

والخيال¹ بحكم طبيعته التحويلية والتركيبية وباعتباره "ملكه نفسية وقوة باطنية، تعيد إنتاج المعطيات الإدراكية السابقة وتسهر على تشكيل تمثيلات ذهنية مشابهة لظواهر العالم الموضوعي، أو مغايرة لها في بياناتها وعلاقاتها وطرق اشتغالها²، كما يسعى أيضا إلى تفكيك هذه الوحدات أي المعطيات الإدراكية السابقة، وإعادة تركيبها تركيبا مغايرا يتحكم إلى جملة من التصورات والسياقات التي يبتدعها الفكر ويؤسسها وفقا لقدرته على ذلك.

إن ارتباط عنصر الخيال بمعنى القدرة أي القدرة على تكوين صور ذهنية، لأشياء غابت عن متناول الحس من جهة، والقدرة على الانفلات من أسر هذه القوالب الصورية الغائبة/ الحاضرة من جهة أخرى، إنما هو ارتباط وثيق الصلة بمعنى التشكيل، الذي يعد بحق جوهر الفعل التخيلي والقائم بدوره على ثنائية الاستحضار والابتكار، وهي ثنائية تراتبية لا بد منها للوصول إلى جوهر الفعل التخيلي الخالص والخالق.

تستلزم هذه الثنائية في المقابل قوالب شكلية محددة تفرضها الطبيعة أولا وأخيرا، لينطلق منها التشكيل فيما بعد، وهذا ما يستوجب معنى الاستحضار الذي يشتغل وفق حيز ثابت وجاهز، بينما يتحقق معنى الابتكار كفعل تخيلي ثان متحرك من خلال مبدأ الخلقة والتفكيك وإعادة التركيب والتشكيل الذي تفرضه المخيلة³ بطريقة أو بأخرى.

فالمخيلة "خزين مريك من الصور والأحداث لا يربطها منطق أو نظام إنها وحدات صغيرة مكومة بلا نظام، وأن عددها لا متناه لذلك فإن عملية التخيل لا تكون استعادة لشيء، بل هي افتراض بنى أو أنظمة من هذه الوحدات، إن المخيلة تبتكر ولا تستعيد، تبتكر أنظمة جديدة موجودة في طبقات الأنظمة التابعة للذاكرة"⁴.

من هنا يتأسس فعل الابتكار والخلق، بعيدا عن معطيات الاستحضار والاستدكار، وإنما وفق ما تقتضيه السياقات المعرفية التي تشكل في مجملها مخزونا متشعبا ولا محدودا من الأشكال والصور والتمثيلات التي تتفكك تباعا وتتداعى لتفسح المجال واسعا أمام أفعال التخيل⁵ اللامحدودة.

"إن الطراز الفريد من التخيل هو فتح المخيلة إلى أقصاها والالتصاق بالجواهر الكوني وجعل هذه المخيلة تتلقف أعنف الاشتباكات، ولذلك فإن عليها أن تلعب دورا جديدا، فهي إذ تقع وهي تنجز المادة الجمالية ضمن حدود الفن الجميل، المزوق المصنوع بمهارة التضاد مع الطبيعة، فهي تقع في محاكاة أخرى، محاكاة الأنماط الجمالية، ولذلك فإن الدور الصحيح الذي يجب أن تلعبه المخيلة، هو محاكاة الأنماط الجمالية من أجل عملية تطهير قصوى لأنقاض داخلية لا حدود لها"⁶، وذلك ضمن اعتبارية التصور القائم والممكن واللاممكن غيبية وحضورا، حركة وكمونا، تجليا وضمورا على سبيل التخيل⁷ الخلاق الذي يمليه علينا نسق ما، وتقتضيه بالضرورة سياقات ظاهرة وأخرى باطنة تتألف فيما بينها وتتنافر وتتقابل تارة وتتجاوز.

والتخيل في ظل هذه المحاكاة والتصورات والأنساق والسياقات والتنافرات والتآلفات، تأليف ما "تأليف صور ذهنية تحاكي ظواهر الطبيعة وإن لم تعبر عن شيء حقيقي موجود"⁸.

أما المتخيل باعتباره حامل الخيال ومقومه الأمثل والأحد، فهو: "معطى مادي يدل على الخيال، ويقوم شاهدا عليه، ومن ثم يتقدم بوصفه جسرا للعبور إليه والاقتراب منه. وبعبارة أخرى إنه صورة الخيال وقد تحولت من مستواها الذهني المجرد والباطني، فتشكلت في قالب تمثيلي، ومظهر إيحائي ملموس، وهو أيضا أساسا نسق من العلاقات بين الصور وحركية منظمة لبنياتها ومركبة لعناصرها"⁹.

ويمكننا القول، إن هذا التشكيل المطعم بعناصر الخيال والمتعيين بها، يفرضه نظام خاص ويؤسسه بدافع حركية ما (بوعي أو بغيره)، وهي حركية تمثيلية متخيلة قوامها المجرد والملموس، الظاهر والباطن، وهي إذ تفعل ذلك فإنها تفسخ المجال واسعا أمام تلك

الإمدادات العلائقية المتألفة والمؤلفة في آن ،والمشدودة إلى عوالم التخيل والتشكيل بطريقة أو بأخرى.

إن الحديث عن المتخيل وعلاقته المثلث بالخيال، لا يختلف كثيرا عن حديثنا عن الميتافيزيقا وعلاقتها بالوجود الفيزيقي، وكيف أن أحدهما يؤدي ويدل على الآخر بطريقة ما دون أن يستلزم الأمر بالضرورة الكشف أو البحث في حدود كل منهما، أين يبدأ حد الوجود الحقيقي وينتهي حد الوجود العرضي والعكس صحيح؟ هذا إذا افترضنا جدلا أن الخيال وجودا حقيقيا مجردا والمتخيل وجودا عرضيا محسوسا، مادام أن كلا منهما جوهر الآخر (حقيقته وعرضه)، ومادام أن وجود كل منهما يفضي إلى وجود الآخر بالضرورة..

"فالميتافيزياء ليست بحثا فيما هو خلف الفيزياء، ولا هي بحثا وراء الفيزياء، بل هي بحث فيما وراء الفيزياء، (فيما وراء) كجملته واحدة تعني المقوم أو الحامل وهي هنا تعني البحث فيما يتقوم به أو فيما يحمل الوجود الفيزيائي على الظهور"¹⁰.

وكما يوجب البحث عن حقيقة الوجود ، البحث في جوهره المطلق (الذي به يتحقق ويتموجد) فكذلك يوجب المتخيل كمعطى حسي ومباشر، البحث في موضوعه الخيال كمعنى مجرد وغير مباشر، بوصفهما معا الحامل والمحمول والقائم والمقوم على أن نضع في اعتبارنا دائما، أن "حوامل الوجود الفيزيائي ليست مضافة إلى هذا الوجود أو منفصلة عنه، بل هي الجزء الأساسي فيه، تماما كما أن الأعصاب والدماغ ليست مضافة إلى الجسد، بل جزءا أساسيا منه"¹¹.

وإذا كانت الميتافيزياء بهذا المعنى جزءا أساسيا من الفيزياء، فإن المتخيل جزءا لا يتجزأ من كيمياء الخيال، بل ولا يمكن إدراك الخيال من دونه، والسؤال المطروح في هذا المجال: هل للخيال من حوامل (مقومات) تحمله باستثناء المتخيل؟ أم هل يمكننا اعتبار المتخيل هو الحامل الأمثل والأوحد للخيال؟ على اعتبار أن المتخيل معطى ماديا وصورة للخيال وجسرا للعبور إليه؟ وهل ثمة جواهر ما ورائية غير محسوسة بها يتقوم ويقوم الخيال والمتخيل معا؟

وبعبارة أخرى: هل يستطيع المتخيل باعتباره الأوحـد أن يكون دليلا كافيا على الخيال؟ وإذا كان الأمر كذلك هل بإمكان الخيال أن يتحقق تماما ويتجلى في مرآة المتخيل فعلا وكونا وحدوثا؟ هل ثمة حوامل تجعل المتخيل شاسعا وواسعا كالخيال؟

الإنسان البدائي وخيالات الأرواح /الأشباح:

تشغل موضوعة الخيال حيزا كبيرا في الفكر الأسطوري، بل يمكننا القول إنها علامة فارقة بين الحياة والموت، والوجود والعدم، فالخيال جزء لا يتجزأ من الروح التي سرعان ما تتحول إلى شبح إذا ما انتُهِك خيالها بفعل حادث ما، سواء أكان ذلك من خلال الطعن¹² أو السقوط¹³ أو الوطء¹⁴، فالخيال بوابة الروح التي يطل منها الكائن على العالم الخارجي، والعالم الآخر (حياة وموتا) وطريقها الأيسر نحو صيرورتَي: البقاء والفناء، والاعتقاد نفسه بالنسبة لانعكاس صورة الخيال في الماء¹⁵ أو المرأة¹⁶ ظلنا منهم وخشية " من أن تسحب أرواح الماء انعكاس المرء أو روحه تحت الماء، تاركة إياه بلا روح حتى يموت، ولعل هذا هو أصل قصة نارسيسوس الذي اعتل جسمه ومات لأنه رأى انعكاس صورته في الماء "¹⁷.

وما يبرّر خشيتهم تلك إزاء انعكاس الصورة بشكل عام وتدفعها على سطح ما؛ هو اعتقادهم المطلق أن روح المرء تطل من جسمه وتتموجد خارجه الأمر الذي يدفعهم إلى التوجس خيفة (توقعا وحدها) من أن هناك خطرا دائما ومحدقا بهم، يمكن الروح من التحرر من عوالم الجسد، وعدم رجوعها إليه.

وتتموجد الروح خارج الجسد على هيئة ظل على سطح الأرض أو خيال منعكس على صفحة الماء، يسوغ لأي كان حرمان صاحب الظل من ظله أو خياله/ الروح¹⁸، ليفارق الحياة في غضون أربعين يوما، أو حتى سنة من الزمن؛ قبل أن يستحيل شبحا غاضبا، أو حجر أساس لبناء ما، أو طيفا¹⁹ ماردا كثيرا ما يتردد على المكان المقصود ويحرسه، لذلك وغالبا ما يستسلم مذعورا ومأخوذا بما يتردد في نفسه: "احذر من أن يأخذوا خيالك"²⁰، عند كل بناء حديد قيد التشييد.

إن الاعتقاد الجازم "بالأشباح و الأطياف قديم وشائع وقائم على فكرة أن روح الإنسان أو روح أي شي شكل في داخل شكل مزود بإرادة وحركة خاصة به، أو خيال شخص ميت"²¹.

والحقيقة أن هذه الأشباح ما هي إلا صورا ذهنية، مرئية وشبه مرئية لكائنات وهمية، لطالما تراءت له في أحلام نومه ويقظته وقد نقل وجودها الفعلي من العالم الذهني والمفترض (المتخيل) إلى العالم الواقعي، وإذ "تزداد الصلة بين الصورة الذهنية وهذه الكائنات الوهمية في ذهن البدائي، فيأخذ الأمر صورة اعتقاد فيما يسمى بالطيف أو الظل أو الذات الثانية كأن تقول: إنَّ للمرء من نفسه شقيقا أو قرينا كالطيف يُداخله، وقد نتج عنه الاعتقاد في الأطياف والأشباح وحياة الجماد والمخلوقات الخرافية، وما تمجيد الموتى، وعبادة الأسلاف فيما يقول "سبنسر" إلا نمووا لذلك الإيمان الموهل في القدم"²².

وقد توطدت هذه الصلة أكثر فأكثر مع الذات الثانية أو القرن²³ إلى أن أصبح وجوده ومعناه يساوي وجود الإنسان وظله وأخيه الذي يخشى أن يفقده، وبالتالي أن يفقد نفسه، كما يعتقد قدماء المصريين، وقد تقاطع هذا الاعتقاد أيضا مع اعتقاد العرب قبل الإسلام فيما يخص الهامة²⁴ والغيلان والجن والسَّعلاة، وإن كانت فكرة "الهامة" قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بفكرة الشيخ والطيف، وبمعاني الموت والقتل والترهيب والترويع والفقد.

وهذا ما يدل على أن الإنسان البدائي "لم يصل بعد إلى مرحلة الوعي بالذات فهو لم يجد نفسه، صاحب هوية مستقلة أو شخصية فردية، تميز عن الوسط الذي يعيش فيه سواء أكان هذا الوسط وسطا طبيعيا أو اجتماعيا أو أسطوريا، بل على العكس؛ إنه ليندمج ويتوحد ليس فقط مع الآخرين من أبناء قبيلة بل وأيضا مع الحيوانات والنباتات.... إلخ بشكل يكاد يكون كاملا. ويعتبر هذا التوحد أو التعيين بمثابة مبدأ أساسي في تفكير البدائيين عامة، وهو التفكير الذي لا يخضع للمعايير العقلية على نحو ما يفهمها الإنسان الحديث. وتماشيا مع هذا المبدأ، لا يفرق الإنسان البدائي بين الجسم أو الروح، أو النفس ولا بين الأصل والصورة، فهما عنده واحد ونفس الشيء"²⁵ كما أنه لا يفرق أيضا بين الحقيقة والخيال لاعتقاده أن ما هو موجود بالقوة²⁶ هو موجود بالفعل ومتحقق.

وبما أن الإنسان محكوم بالخيال (طبعاً وغريزة) ومدفوعاً إليه دفعا واضطرار، فإن ذلك يجعله من دون شك واحداً من أهم الموجودات المتعينة، خاصة بالنسبة للإنسان البدائي، والتي يُنظر إليها بعين الحقيقة وجوداً لا بعين الخيال المتعالي على الوجود والتحقق. وما استطاع أن يعرف الحقيقة من الخيال ويميز بينهما إلا بعد أن تغيرت نظرته إلى الحياة، وتطورت وتعاليت عن طريق العقل، "ولكنّه ورغم كل ذلك لم يزل بحاجة إلى الخيال لأنه وإن أصبح يحتكم إلى العقل، ويستطيع التعبير عن خوالج نفسه، فهو لم يزل يحتكم إلى الشعور، وسيظلّ كذلك لأن الشعور هو العنصر الأول من عناصر النفس، واحتكامه إلى الشعور يدفعه ولا بدّ إلى استعمال الخيال"²⁷.

وإذا كان نشاط الإنسان البدائي التخيلي، يحتكم إلى ثنائية العقل والشعور، فإنه من دون شك يتكئ على علائق التجسيد والتجريد والتشخيص والتطبيع والتمثيل والتعليل، ويقيم على أساس كل ذلك عوامله الخاصة التي بها يتبلور وجوده الحقيقي الكامل في الوجود الواقعي.

فالخيال إذن هو الذي يؤسس الواقع كما أن الواقع هو ذلك المتحقق عن طريق الخيال بكامل إسقاطاته وتمثلاته ووسائطه المعنوية وغير المعنوية، ما دامت كل الطرق الواقعية وغير الواقعية تؤدي إلى الخيال ولا تتحقق إلا به.

وعلى كلّ: "فإن الخيال يقدم نتاجه إلى عين العقل التي تتلقاه مفترضة أنه واقع، حتى لو كانت تعلم أنه غير ذلك، ولا تتوسل القدرة التخيلية بالموجودات من حيث كونها أشياء ذات مظاهر وأشكال مادية ملموسة، بل تتوسل أيضاً بالأفكار والمشاعر التي تخلع عليها المعنى وتجعلها رغم تجريدها قابلة للفهم والاستيعاب والتعاطف"²⁸.

لذلك كانت الأسطورة هي الأقرب إلى نفسه، لتفسير الوجود وفهمه والتعبير عنه، والأدنى إلى شعوره وخياله ومشاعره لاستمالة الوجود لصالحه والكشف عن معانيه ومتناقضاته ولو بطريق المجاز²⁹: إنها " الصوت الأول الذي رن بين جنبه من أصوات الفكر

وأجراس الشعور، أو بعبارة أدنى إلى الذهن، إنما طفولة الشعر في طفولة الإنسان وما كان مصدره الطفولة الساذجة فهو أدنى إلى الطبع وأدل على النفس من أي شيء آخر، لأنه يبقى بريئاً من كل كلفة أو تصنع، بعيداً عن كل زخرف أو تمويه³⁰.

ولطالما اعتبرت الأسطورة ملاذ الإنسان البدائي وحافضة وجوده وكيانه، يتعرف من خلالها وبها على مشاهد الوجود ومظاهره المتعددة، فيعيرها من نفسه مجالا حيويًا يبقيا على قيد الحياة رمزا ومجازا وإيحاء، نافخا فيها من روح الحياة وإكسيريها الأبدي وصاقلا إياها بماء الخيال الذي لا ينضب، فإذا هي حية تسعى على مدى الزمن.

مع العلم أن مجال هذا الخيال هو (ما فوق الطبيعي)، وأن ما يقوم به الخيال البدائي من نشاط حيوي، إنما هو محدد ومقوبل وجاهز، إضافة إلى أنه بالغ الفعالية والمنفعة بالنسبة إلى الإنسان البدائي الذي ينظر إليه نظرة براغماتية محدودة ومقيدة.

"إن الخيال البدائي يتعامل أساساً مع ما فوق الطبيعي وغير المحسوس، فضلاً عن أنه غالباً ما يندفع إلى الحركة والفعل بطريقة لاواعية، ليحقق الأهداف التي تفرضها عليه موضوعاته الخاصة، وهو يقدم إلى العقل المتلقي شيئاً مرثياً، وذلك من خلال خلعه صفات المنظور والمألوف على غير المألوف أو المنظور، وتنبع قدرته على تحقيق ذلك من حدة ورهافة الإحساسات البدائية، فعلى هذه الإحساسات يعتمد نشاطه وواقعته أيضاً"³¹.

وهو إذ يجنح إلى الخيال (ما فوق الطبيعي) لا يركز اهتمامه على ما هو غائب عن حسه وعن حدود المكان والزمان بقدر ما يهتم بما تتمثله ذاته وتعتقد بوجوده الفعلي والمطلق، بعيداً عن انشغالات الحواس وتمثلات الشيء المنظور والمحسوس.

وهذا ما يجعل معتقداته البدائية عصية على التبليغ والوضوح والدقة، وقد تأخذ طابعا غرائبيا غير مألوف، يتطلب الكثير من إعمال الفكر والخيال، للوصول إلى لب (ما يعتقده) حقيقة، والقبض على معناه، حسبه في ذلك أن يكون ملموساً ومفهوماً وفعالاً وقريباً من الذهن ومن المتلقي.

"والذي دفع المبدع البدائي إلى ممارسة العملية التخيلية على هذا النحو، إنما هو في الغالب محاولة فهم ما تعنيه المعتقدات والأساطير التي يعايشها، إنه ينظر إلى هذه الأساطير والمعتقدات ويحاول تفسيرها من خلال نظريته الخاصة إلى العالم، والنتيجة الطبيعية لهذه النظرة، أن كل الموجودات اللامرئية أو اللامحسوسة التي يؤمن بوجودها، تصبح موجودات واقعية، تلج دائرة فنه الواقعي، وتدخل في إطار عالمه المألوف"³².

والغريب في الأمر أنه يمارس نشاطه التآلفي المشهود بين عناصر الوجود، دون أن يتدخل عنصر الوعي في ممارسته تلك، وينتج عن ذلك، أن تصبح الموجودات والمعتقدات التي تلازمه طيلة هذا النشاط، كما لو أنها واحدة من المسلمات التي يتعين على الفرد الوثوق والإيمان بها وتقبلها دونما أي اعتراض، على اعتبار أنها مألوفة وواضحة، لا فرق بينها وبين باقي الموجودات اللامحدودة واللانهائية، التي لطالما شعر بها وتآلف معها وآمن بشموليتها وإحاطتها به، واندماجها بعالمه.

"وبما أنه . أي البدائي . لا يبدأ عمله التخيلي بالتساؤل عن إمكانية وجود هذه الكائنات، بل يشعر بها تمارس حياتها من حوله، أينما حل، فإنه ينمي علاقته بها، ويتعامل معها مثلما يتعامل مع عناصر عالمه اليومي الملموسة، ولكن على الرغم من أن هذا شيء طبيعي بالنسبة إلى البدائي فإنه يتطلب منه مقدرة على تخيل هذه الكائنات ورؤية صفاتها الحقيقية والتعامل معها، تبعاً لذلك خصوصاً عندما يريد منها أن تصنع له أمراً من الأمور، أو تمنع عنه وقوع حدث من الأحداث يمكنها وحدها القيام به"³³.

وخلاصة القول:

إنَّ القدرة على دمج المعقولات والمحسوسات وتجميع الصور والموجودات وتشكيلها (على هيئة خيالات أو كائنات مرئية وغير مرئية) ومن ثمَّ تركيبها وتفكيكها وتدويرها وتجسيدها وتآليفها وأنسنتها، والتأليف بينها، تتطلب وتستلزم خيالا قويا ودقيقا جدا، ومرنا في التعامل معها، على افتراض انتمائها إلى العالم الطبيعي وعالم ما فوق الطبيعي.

وإن كان الإنسان البدائي يؤمن في حقيقة الأمر بتوحيدهما معا وانبثاقهما من بوتقة واحدة، بل وبتطابقهما أحيانا، دون أن ينكرو وجود الأول من الثاني، وعلاقة كل منهما بالآخر (تأثيرا وتأثرا) ما يدل على أن خيال الإنسان البدائي قائم على استخدام مدركاته الحسية

الملموسة وتطويعها، ليخلق بها عوالم غيبية مجردة انطلاقاً من معرفته الأولى والخاصة التي لطالما كوَّنها عن العالم الفيزيقي الذي يواجهه باستمرار، ويقاومه بكثير من التحدي والمعقولة المتخيَّلة.

الهوامش:

¹⁻ ويدل الخيال أيضاً في اصطلاحنا على الصورة الباقية في النفس، بعد غيبة المحسوس عنها، فإما أن تكون هذه الصورة تمثيلاً مادياً لشيء خارجي مدرك بحاسة البصر، كارتسام خيال الشيء في المرآة أو تمثيلاً بخطوط بيانية، وإما أن يكون تمثيلاً ذهنياً، لشيء مدرك بحاسة البصر، أو غيرها من الحواس، ومن عادة علماء النفس، أن يجعلوا هذا التمثيل الحسي مضاداً للتمثيل العقلي، إلا أن الفلاسفة الحسنيين لا يرون ذلك بل يذهبون إلى أن التمثيل العقلي متولد من التمثيل الحسي، ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، د ط، ص 546.

²⁻ يوسف الإدريسي، الخيال والتمثيل في الفلسفة والنقد الحديثين، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 2005، ط 1، ص 07.

³⁻ المخيلة أو المتخيلة هي القوة التي تتصرف في الصور المحسوسة والمعاني الجزئية المنتزعة منها، وتصرفها فيها بالتركيب تارة والتفصيل ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 2، ص 325.

⁴⁻ خزعل الماجدي، العقل الشعري، الناي للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، 2011، ط 1، ص: 33.

⁵⁻ تدل كلمة تخييل والتي تتقاطع بدورها مع كلمة خيال، على أفعال الصنع والتشكيل والخلق والابتكار لأشياء متخيلة وقد استعملت في القرن 13 للدلالة على مجال التخييل و اللاواعي، كما استعملت في القرن 17، بمعنى الخداع بينما دلت في القرن 18 على ما يخلفه الخيال، وخاصة في الحقلين الأدبي والفني، وتستعمل حالياً في تركيبات كثيرة، تعين الجنس الأدبي أو السينمائي القائم على الخيال الاستقبالي كما هو الأمر بالنسبة إلى الخيال العلمي، والخيال السياسي ونحو ذلك، ينظر: يوسف الإدريسي، الخيال والتمثيل في الفلسفة والنقد الحديثين، ص: 29.

⁶⁻ خزعل الماجدي، العقل الشعري، الناي للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، 2011، ط 1، ص: 34.

⁷⁻ تخيل الشيء: اخترعه وأبدعه كما في التخييل المبدع، وهو قوة تتصرف في الصور الذهنية بالتركيب والتحليل والزيادة والنقص، وتسمى هذه القوة بالمخيلة أو المتخيلة، قال الفارابي: " القوة المتخيلة حاکمة على المحسوسات و متحكمه عليها، وذلك أن تفرد بعضها عن بعض وتركب بعضها إلى بعض تركيبات مختلفة يتفق في بعضها أن تكون موافقة لما حس، وفي بعضها أن تكون مخالفة للمحسوس، والمثال من هذا التخييل المبدع تخيل المصور الذي يرسم صورة خيالية يراها في أعماق نفسه، أو تخيل الكاتب الذي يصف حياة بطل يتمثلها كما يشاء، أو تخيل العالم الذي يبدع نظرية جديدة، ويسمى هذا النمط من التخييل اختراعاً أو ابتكاراً أو تجديداً، ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، ص: 262.

- ⁸- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1 ، ص : 262.
- ⁹- يوسف الإدريسي، الخيال والتمثيل في الفلسفة والنقد الحديثين، ص : 08.
- ¹⁰- هاني يحي نصري ، الميثافيزياء والواقع، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1998، ط1، ص : 27.
- ¹¹- المرجع نفسه، ص : 39.
- ¹²- ففي جزيرة وتيار سحرة قادرون على إصابة شخص بالمرض من خلال طعن خياله برمح أو ضربة بالسيف...ينظر: جيمس جورج فريزر، الغض الذهبي، ترجمة: محمد زياد كبة، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، الإمارات العربية المتحدة، 2011 ، ط1، ص: 118.
- ¹³- وفي جزر بانك حجارة ذات أشكال طويلة جدا، تعرف باسم الأشباح الأكلة ، نظرا للاعتقاد بوجود أشباح خطيرة وقوية تسكن فيها، فإذا ما سقط خيال امرئ على إحدى هذه الحجارة انتزع الشبح روحه من خياله فيفارق الحياة، ينظر: المرجع نفسه الصفحة نفسها.
- ¹⁴- أما في الجزيرة العربية فيعتقد الناس أنه إذا وطأ ضبع خيال رجل سلبه القدرة على الجري والحركة وأنه إذا كان على السقف كلب واقف في ضوء القمر وخياله ممتد على الأرض ووطأ خياله ضبع سقط الكلب على الأرض كما لو انه جُرَّ بحبل ومن الواضح أن الخيال حتى إن لم يكن مساويا للروح يعد جزءا حيا على الأقل من الإنسان أو الحيوان، بحيث إذ لحق أي أذى بالخيال، أحس الإنسان أو الحيوان بالألم كما لو كان الأذى بجسمه بالذات، ينظر، المرجع نفسه، ص : 120.
- ¹⁵- فأبناء قبيلة الزولو يمتنعون عن النظر في حوض داكن لاعتقادهم أن فيه وحشا ينتزع انعكاس صورهم ويؤدي إلى موتهم ويقول أبناء الباسوتو: إن للتماسيح القدرة على قتل إنسان من خلال جر انعكاسه تحت الماء، فإذا مات أحدهم فجأة وبدون سبب واضح ادعى أقربائه أن التماسيح أخذ خياله وهو يعبر النهر ذات مرة، وفي جزيرة سادل في ماليزيا هناك بركة يموت كل من ينظر في مائها لأن روحا شريرة تمسك بروحه من خلال انعكاس صورته في الماء، ينظر: المرجع نفسه، ص: 123.
- ¹⁶- ونستطيع الآن أن نفسر إحدى العادات واسعة الانتشار وهي تغطية المرايا وتوجيهها نحو الحائط إثر وفاة أحد أفراد الأسرة، إذ يخشى الناس أن يأخذ شبح الميّت الروح التي تنطلق من الشخص في هيئة انعكاس لصورته في المرآة لاعتقادهم أن شبح الميّت يبقى في البيت حتى الانتهاء من الدفن، ينظر، المرجع نفسه، ص: 125.
- ¹⁷- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁸- منذ مدة ليست ببعيدة كان هناك تجار خيالات، يزودون المهندسين بالخيالات الضرورية لتدعيم جدرانهم و في هذه الحالات يعد حجم الخيال معادلا للخيال ذاته ويسد دفته مسد دفن حياة الرجل أو روحه وهو الذي سيموت لا محالة بعد حرمانه من ظله وبذلك نرى أن هذه العادة تقوم مقام دفن رجل في الجدار أو سحقه تحت حجر الأساس لإكساب البناء القوة والمتانة، أو بعبارة أدق: لجعل الشبح الغاضب يتردد على المكان وحرسه من تدخل الأعداء، ينظر: جيمس جورج فريزر، الغض الذهبي، ترجمة: محمد زياد كبة، ص: 123
- ¹⁹- أما الطيف والخيال فقد ارتبطا معا أيضا في مجال أسطوري ، ونستطيع أن نقول: إنَّ الطيف كان صورة مرئية أو شبه مرئية، لما يدور في خيال البدائي، وإذا كان هذا الخيال عملية عقلية، فهو قد أخذ

شكلا ماديا يترأى شبها أو طيفا أو حتى خيالا، ينظر: حسن البنا عز الدين، الطيف و الخيال في الشعر العربي القديم، دار المناهل، بيروت، 1994 ، ط3، ص : 23.

²⁰- من العادات المتبعة في اليونان الحديثة عند حفر أساسات بناء جديد" ذبح ديك أو كبش أو حمل وإراقة دمه على حجر الأساس، التي يدفن الحيوان تحتها بعد ذلك، أما الهدف من هذه الأضحية فهي إعطاء البناء القوة والثبات، لكن قد يحدث أحيانا أن يأتي البناء برجل إلى الحجر الأساس فيقيس جسمه أو أجزاء من جسمه أو خياله سرا بدلا من نحر الحيوان، ثم يدفن المقياس تحت الحجر الأساس أو يضعه فوق خيال الرجل، ويعتقد أن الرجل يفارق الحياة في غضون سنة من الزمن، ويعتقد الرومانيون في ترانسيلفانيا أن كل من دفن ظله بهذه الطريقة مات في غضون أربعين يوما، لذلك قد يسمع من يمر بالقرب من بناء قيد التشييد، صوتا يحذره قائلا: احذر من أن يأخذوا خيالك " ، ينظر: جيمس جورج فريزر، الغصن الذهبي، ص: 123.

²¹- حسن البنا عز الدين، الطيف والخيال في الشعر العربي القديم، ص: 25

²²- المرجع نفسه، الصفحة نفسها

²³- القرن عند الأسكتلند هو روح الشخص قبل وفاته مباشرة وكثيرا ما كانت هذه الأطياف تعد إلهامات أو تحذيرات سابقة، ومن أقدم وسائل العرافة والسحر استدعاء الأطياف بواسطة التعاويذ، ينظر: حسن البنا عز الدين، الطيف والخيال في الشعر العربي القديم، ص: 25.

²⁴- ويزعم بعضهم أن النفس طائر يتبسط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل، ولا يزال متصورا في صورة طائر، يصرخ على قبره مستوحشا له وفي ذلك يقول بعضهم: سلط الموت والمنون عليهم =فليم في صدی المقابر هام، وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيرا أو يكبر حتى يصير كضرب من البوم ويتوحش ويصرخ ويوجد في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى، ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

²⁵- محمود رجب فلسفة المرأة، دار المعارف ، القاهرة، 1994، ط1، ص: 193.

²⁶- نقصد بالقوة: القوة القائمة على الخيال كقوة باطنية والخيال باعتباره القوة التي تتصرف في الصور الذهنية، والمخيلة باعتبارها القوة التي تتصرف في الصور المحسوسة.

²⁷- أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ط1، ص: 30.

²⁸- موديس بوا، الخيال البدائي، تر: جابر عصفور، الخيال، الأسلوب الحداثي، ص: 09.

²⁹- الإنسان الأول حينما كان يستعمل الخيال في جملة وتراكيبه، لم يكن يفهم من هاته المعاني الثانوية التي نفهمها منه نحن، ونسميها المجاز، ولكنه كان يستعمله وهو على ثقة تامة لا يخالجهما الرب في أنه قد قال كلاما ما حقيقيا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو حينما يقول مثلا: ماتت الريح، أو أقبل الليل، لم يكن يعني منه معنى مجازيا وإنما كان يعتقد أن الريح قد ماتت حقا وأن الليل قد أقبل حقا بألف قدم وألف جناح، يدل لذلك ما في أساطير الأقدمين من أنهم كانوا يؤمنون بأن الريح والليل إلهان من الآلهة الأقوياء، ينظر أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب ، ص: 24.

³⁰- المرجع نفسه، ص: 34.

³¹- موديس بوا، الخيال البدائي، تر: جابر عصفور، الخيال الأسلوب الحداثي، ص: 66.

³²- المرجع نفسه، ص: 11.

³³- مورييس بوا، الخيال البدائي، تر: جابر عصفور، الخيال الأسلوب الحداثة، ص: 12.

قائمة المراجع:

- الشابي أبو القاسم، 1995، الخيال الشعري عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
- صليبا جميل، 1982، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ط.
- صليبا جميل، 1982، المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ط.
- جورج فريزر جيمس، 2011، الغض الذهبي، ترجمة: محمد زياد كبة، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، الإمارات العربية المتحدة، ط1.
- عز الدين حسن البنا، 1994، الطيف والخيال في الشعر العربي القديم، دار المناهل، بيروت، ط3.
- الماجدي خزعل، 2001، العقل الشعري، الناي للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا.
- رجب محمود، 1994، فلسفة المرأة، دار المعارف، القاهرة، ط1.
- بوا مورييس، الخيال البدائي، تر: جابر عصفور، الخيال، الأسلوب الحداثة.
- نصري هاني يحي، 1998، الميثافيزياء والواقع، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1.
- الإدريسي يوسف، 2005، الخيال والمتخيل في الفلسفة والنقد الحديثين، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط1.